(14)
الأساس الثقافي والمنهج

للأستاذ الدكتور/ عبد الله محمد الأشهب

- ملخص:

تشير الدّراسات إلى وجود تباينٍ واختلافٍ في وجهات النّظر بين كثيرٍ من العلماء والباحثين في تعريف مفهوم الثّقافة، هذا التّباين والاختلاف يرجع إلى تنوّع المدارس والتّخصصات، فبعض التعريفات وصفيةٌ تهتمّ بمعرفة المحتوى والمكوّنات، وبعضها الآخر نفسيٌّ، يهتمّ بالجانب الرّمزي للثّقافة، والجزء الثالث اتجاهٌ بنائيٌّ، يهتم بالصيغ العامة وأنماط الفعل والسلوك، ولعل هذا الاختلاف في الصياغة والألفاظ لا ينفي وجود تشابهٍ كبيرٍ بين العديد من التعريفات مع التعريف الذي قدمه تايلور في كتابه عن الثقافة البدائية (34: 41-46).

- الثقافة:

تشير إلى المكتسبات المعرفية والفلسفية التي تحرزها النخبة الواعية من المثقفين الذين يمثلون نسبةً من المجتمع وليس المجتمع بكامله، ويمثلون منزلةً فكريةً عاليةً، ويستخدم لفظ «مثقف» في الحياة العامة والعادية بإطلاقه على الرجل المتعلم أو المتخصص في ميدان الأدب أو الفن أو الموسيقى، أو مَن لديه معرفةٌ واطلاعٌ واهتمامٌ واسعٌ. إن هذا الفهم للثقافة يُعد محدودًا جدًّا، عليه فإننا نرى أن هذا التحديد يمكن أن يرتبط بالمفهوم الضيق للمنهج الذي يقصر عملية التعليم على الجانب المعرفي فقط.

لذا فإن مفهوم الثقافة يجب أن يتعدى الجانب العلمي المعرفي؛ ليشمل كلّ مظاهر السلوك المرتبطة بتكامل شخصية الإنسان في الجوانب المعرفية والعقلية والجسمية المهارية، والجوانب الانفعالية الروحية الوجدانية، الأمر الذي يدفعنا إلى أن نقدم تعريفًا إجرائيًّا شاملًا يفيد واضع المنهج، وذلك وَفق ما يلي:

"الثقافة هي مجموعة أنماط السلوك المرتبطة بالدين والعرف واللغة والعادات والتقاليد المرتبطة بالمأكل والملبس والمشرب والمرتبطة بالقيم والاتجاهات والميول والأحاسيس والمشاعر التي تميز جماعة عن غيرها من الجماعات الأخرى".

- خصائص الثقافة:

من أهم خصائص الثقافة التي يمكن اشتقاقها من تعريفاتها ما يلي:

1. الخاصية الأولى للثقافة: هي أنها مستقلةٌ عن الأفراد الذين يحملونها، ويمارسونها في حياتهم اليومية.

2. الخاصية الثانية للثقافة: هي "الاستمرار" بكون الثقافة نابعة من التراث الاجتماعي الموروث من الأجيال السابقة.

3. الخاصية الثالثة للثقافة: هي التعقيد، حيث إنها شاملةٌ لعددٍ كبيرٍ من الثقافات والعناصر.

4. الثقافة إنسانيةٌ، إذ ينفرد الإنسان عن سائر المخلوقات بقدرته على صنع الثقافة والمحافظة على استمرارها وإثرائها.

5. الثقافة اجتماعيةٌ متعلمةٌ، فهي تنشأ عن طريق الاتصال والتفاعل بين الأفراد في المجتمع.

6. الثقافة متنوعة المضمون، ومتشابهة الشكل، إذ يصل الاختلاف في مضمونها إلى حد التناقض.

- عناصر الثقافة:

المحتوى الثقافي لأي مجتمعٍ يمكن أن يتكون من العناصر الثقافية التالية: (**35: 179-180**).

أولًا: العموميات:

هي تلك الأنماط من السلوك التي يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، وتشمل مظاهر السلوك المرتبطة بالدين واللغة والعرف والقيم والاتجاهات والعادات والتقاليد المرتبطة بالمأكل والمشرب والملبس التي نجدها سائدةً بين أفراد المجتمع، وتميزهم من غيرهم من الجماعات الأخرى.

ثانيًا: الخصوصيات:

هي مظاهر السلوك التي تشترك فيها مجموعةٌ معينةٌ من الأفراد لها تنظيمها الاجتماعي الخاص في داخل المجتمع، هذا وتتكون الخصوصيات من الفئات والتصنيفات التالية:

1- الخصوصيات الطبقية، الطبقة الأرستقراطية، الوسطى أو الدنيا.

2- الخصوصيات المهنية والفنية مثل الأطباء والمهندسين والحرفيين وغيرهم.

3- الخصوصيات المذهبية والعقائدية التي تميز فئةً في المجتمع من غيرهم.

4- الخصوصيات العرقية والعنصرية.

ثالثًا: المتغيرات أو البدائل:

هي تلك الأنماط من السلوك التي لم تكن معروفةً في المجتمع، وإنما انتقلت إليه من مجتمعٍ آخر عن طريق فردٍ أو جماعةٍ، وبدأت تنتشر شيئًا فشيئًا، وأصبحت بديلًا ثقافيًّا. حيث إن هذه المتغيرات تظل على سطح الثقافة، حتى تتحول إما إلى عمومياتٍ أو خصوصياتٍ تثبت وتستمر.

- أهمية الثقافة:

الثقافة هي الوجه الثاني للمجتمع، فالمجتمع والثقافة وجهان لشيءٍ واحدٍ، فإذا كان المجتمع بناءً فإن الثقافة محتواه، وعليه فإن الثقافة تندرج في هيكل النظام الاجتماعي، والإنسان يرتاح لثقافة الجماعة التي ينتمي إليها، وانتقاله إلى جماعةٍ أخرى قد يسبب له اضطرابًا في السلوك، والثقافة تؤثر على شخصية الإنسان ونجد الإنسان من جهةٍ أخرى يؤثر في ثقافة الجماعة التي ينتمي إليها، من هنا تأتي أهمية الثقافة بالنسبة لحياة الجماعة، التي يمكن أن تتضح فيما يلي:

1- الثقافة وسيلةٌ للتماسك الاجتماعي.

2- الثقافة تشبع حاجات الإنسان الأولية والثانوية، وأن وجود نمطٍ ثقافيٍّ معينٍ يتوقف على مدى مساهمته في إشباع تلك الحاجات.

3- تلعب الثقافة دورًا بارزًا في توطيد الوحدة الاجتماعية وتخفيف الصراع والتفاعل بين الأفراد في الجماعة، وهي تمد الأفراد بالمعايير والنظم والقوانين التي تنظم العمل والتعاون والانسجام في الجماعة. (35: 153، 160).

4- تلعب الثقافة دورًا بارزًا في تكوين شخصية الإنسان وتُكسبه المكانة المرموقة في مجتمعه، حيث إن الخبرات التي يكتسبها الفرد في طفولته لها أهميتها في تكوين شخصيته.

5- تلعب الثقافة دورًا مهمًّا في التغير الاجتماعي، إذ نستطيع القول: إن الثقافة التي تتسم بالجمود والتخلف تؤدي إلى تخلف المجتمع وتَحُول دون تقدمه، وبالمقابل فإن الثقافة التي تتسم بالتطور والديناميكية تسهم في تطوير المجتمع وتقدمه.

- التحديث والتجديد في الثقافة:

يَبرز النشاط الثقافي، ويعبّر عن نفسه من خلال التعليم والرواد، المدرسة تنتج الرواد وهؤلاء ينشئون المدرسة ويوجهونها، إن هذا يعني أن التحديث وتجديدَ النظام الثقافي يتطلب تجديد المدرسة وتطويرها، وذلك من خلال تحليل الواقع وتشخيصه.

المدارس في الوطن العربي ثلاثة أنواعٍ، تنتشر في معظم الأقطار العربية، منها المدرسة التراثية، وفي الجهة الأخرى توجد المدرسة الأوربية الحديثة التي تتبناها المؤسسات الأجنبية والمؤسسات الحرة، وبينها توجد المدرسة العامة الحكومية.

بدأ توسع المدرسة التراثية والتي أصبحت تصطدم ببعض الحكومات العربية التي بدأ بعضها يتخذ موقفًا متشددًا، مما أدى إلى نتائج عكسية، حين لجأت إلى محاولة التحديث، لكن التوسع والتحديث لم يشمل المواد التراثية والأدبية، وهي في معظمها مستمرةٌ في إفراز نخبةٍ من ذوي الاتجاه المحافظ، الذي يقف بعيدًا عن مجال التحديث العصري العلمي والتقني.

واستمرت المدرسة الحكومية ذات طابعٍ مزدوجٍ، تضم برامج التراث والمحافظة من جهةٍ وفي الجانب الآخر تضم صيغة المدرسة الأجنبية، وأصبح الطالب يتعرض إلى ضغطٍ معرفيٍ تلقينيٍّ مزدوج الاتجاه، أدى إلى فصامٍ في الشخصية الثقافية، التي يتجه بعضها إلى جهة التيار التراثي المحافظ، ويتجه بعضها الآخر إلى اتجاه التغريب والمعاصرة المرتبطة بتقليد النظم الأجنبية، وعليه أصبح الجسم العربي منقسمًا، وساحةً للصراع بين ثقافتين متعارضتين. **(29: 141-144).**

عليه فإن التحديث والتجديد يتطلب أن يتم القضاء على هذه الازدواجية، وهذا التعدد الذي يمس الوحدة العضوية الثقافية في الأمة العربية، ويدخلها في صراعٍ وانقسامٍ، قد يهدد كيانها ويقوضه، والتحديث لا يكون بإلغاء التعليم الديني أو الحد من انتشاره، حيث إن وجوده ضروريٌّ؛ لتعزيز الجانب الروحي والأخلاقي، ولكن المهم في الأمر التوصل في المجتمع العربي إلى المدرسة العربية الواحدة التي تجمع بين خصوصية الحضارة العربية

الإسلامية والنظام الثقافي العام، ويعني هذا أهمية وجود وحدةٍ مرجعيةٍ ثقافيةٍ عامةٍ. إن الوطن العربي في الوقت الحاضر يفتقد إلى وجود هذه المرجعية الواحدة، حيث نجد النخبة "العصرية" والنخبة التراثية، ونجد كلًّا منهما ينقسم إلى مرجعياتٍ جزئيةٍ فرعيةٍ، ففي الجانب التراثي نجد المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي، والسني والشيعي، وتتعدد الطوائف والفرق والمذاهب بما يخلق تفتتًا في المرجعية يهدد وحدتها وكيانها، وفي الجانب المقابل نجد المؤثرات المرتبطة بالمدرسة الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية وغيرها. عليه فإن الإصلاح والتجديد يتطلب تطويرًا للمناهج، يتبنى فلسفةً تهتم بالتكوين والإنشاء لمرجعيةٍ ثقافيةٍ عربيةٍ واحدةٍ، تربط جميع المرجعيات والمذاهب الدينية والفكرية، تتبنى التجديد من الداخل، وتعمل في اتجاهين:

الأول: يهتم بالنقد وإعادة الترتيب والبناء للتراث الثقافي تختلف صوره واتجاهاته.

الثاني: يتولى التأصيل لقيمٍ ترتبط بالحداثة والتطوير، بحيث يتم الوصول إلى صيغٍ تجمع بين أصالة التراث والتطلع إلى مواكبة التقدم بما يتمشى مع روح العصر.

عند هذا الحد وقبل أن نختم هذا الجزء من البحث الذي أوضحنا فيه مفهوم الثقافة وأهميتها بالنسبة لواضع المنهج نود أن نشير إلى أن هناك الكثير من أنماط السلوك المرتبطة بثقافة المجتمع، قد تكون عقبةً تحول دون إحداث التقدم، وأن هناك بعض المجتمعات -نتيجة لمؤثراتٍ مختلفةٍ- بدأت تظهر فيها قيمٌ ثقافيةٌ متناقضةٌ بين التمسك بالقديم وبالتراث الذي يصل إلى حد الجمود، وبين قيمٍ -تحت شعار التطوير والتقدم- تتبنى أنماطًا ثقافيةً غريبةً عن المجتمعات التي تنتمي إليها، ولربطِ المنهج بالأساس الثقافي نرى ضرورة العمل بما يلي:

1. ثقافة منفتحة وليست منغلقةً، بمعنى أن تساعد على انفتاح مجتمعنا على المجتمعات الأخرى، ثقافة تُفتح فيها النوافذ والأبواب على كل أنماط ومظاهر السلوك التي من شأنها المساعدة على تقدم المجتمع، وتعمل على عدم نقل القيم التي تسعى إلى الهدم وتقضي على الأصالة، ثقافة ترتبط بالجذور لا بالقشور، ثقافة الجذور التي ترتبط بما يتعلق بالتطور العلمي والتقني واكتساب اللغات التقنية، التي ترتبط بالنواحي الإيجابية، وعدم التركيز على القيم التي ترتبط بالقشور (الموضة) وضمان تحصين المجتمع ضد البدع والأفكار التي لا طائل منها.

2. ثقافة لا تصر على القديم لمجرد أنه قديمٌ، بل تعمل على المحافظة على كل مظاهر التراث من قيمٍ ومعتقداتٍ وعاداتٍ وتقاليد، تبرز هُوية المجتمع وأصالته، ولكنها في الوقت

نفسه لابد أن تتلاءم مع العصر، وتساعد على عدم التناقض بين التراث والأصالة من جهةٍ، والحداثة والتجديد من جهةٍ أخرى.

تتضمن عاداتنا وتقاليدنا وأنماط سلوكنا سواء في العموميات أو الخصوصيات الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى تعديلٍ بما يواكب متطلبات العصر، ففي الوقت الذي نؤكد فيه الهُوية والأصالة، ندعو إلى أهمية تخليص القديم من كل الأفكار والمعتقدات والقيم والعادات والتقاليد التي تشد المجتمع إلى الوراء، ونحاول تخليص مجتمعاتنا منها.

ثقافة تحصن الشباب، بحيث يصبح سلوكهم نابعًا من ذاتهم وقناعاتهم لا سلوكًا يخضع لأي سلطةٍ خارجيةٍ، وهذا يتطلب أن يتم تعديل السلوك في مختلف المظاهر عن طريق الإقناع ومخاطبة العقل، ولا يتم فرض السلوك بالقوة والعقاب، إننا بذلك ندفع الشباب إلى أن يكون عندهم ازدواجٌ في شخصياتهم، فهم يسلكون وَفق ما نرغب ونريد في وجود السلطة (أب - شرطي – معلم – مدير مدرسة)، ولكنهم يسلكون سلوكًا مخالفًا في حالة غياب السلطة، وحتى يتجنب أولادنا هذا الازدواج في مناهجنا، وفي تعاملنا مع التلاميذ والطلاب لا بد أن نخاطب فيهم العقل والفكر والمنطق، ونعوّدهم على حرية الاختيار المرتبط بهذه الجوانب، بما يساعد على أن يكون الرقيب في داخل الإنسان لا من خارجه.

وأخيرًا نرى أهمية وضع قائمةٍ على المستوي الوطني يشارك في وضعها جميع أطياف المجتمع، تتضمن كل مظاهر السلوك الايجابي؛ لكي يتم تضمينها المنهج، وفي المقابل توضع قائمة تتضمن كل مظاهر السلوك السلبي، وذلك لكي يتم التخلص منها؛ على سبيل المثال:

سلوكٌ سلبي	سلوكٌ إيجابي
الإسراف والاستهلاك	الاقتصاد والإنتاج
التعصب للرأي	تقبل الرأي الآخر
عدم تقدير الوقت	تقدير الوقت

وفي جميع الأحوال لا بد من ملاحظة أن المضمون في أنماط السلوك المرغوب وغير المرغوب ثابتٌ، وما يجب أن يتغير هو محتوى المضمون وشكله، على سبيل المثال: الكرم في الثقافة مضمونٌ ثابتٌ، ولكن نرى أن شكل الكرم الحاتمي في التراث لا بد أن يتغير من حيث محتواه وأساليبه، فالوقت غير الوقت، فكرم الطبيب في الوقت الحاضر ليس في إطعام

الضيف بأصنافٍ مختلفةٍ من الطعام، ولكن كرم الطبيب في الوقت الحاضر هو بمقدار ما يمنحه من وقتٍ لمرضاه، والتفاني في خدمتهم، وكذلك المدرس والموظف والعامل يقاس كرمهم بمقدار تضحياتهم من أجل الآخرين.

المصادر والمراجع:

1. أحمد الفنيش: أصول التربية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1991م.
2. محيي الدين صابر: التغير الحضاري وتنمية المجتمع، ط1، القاهرة، 1962م.
3. محمد فاضل الجمالي: تربية الإنسان الجديد، تونس، مطبعة الاتحاد التونسي للشغل، 1976م.
4. محمد هاشم فالوقي: أسس المناهج التربوية، الجامعة المفتوحة، 1994م.
5. محمد نبيل نوفل: رؤى المستقبل: المجتمع والتعليم في القرن الحادي والعشرين، المجلة العربية للتربية، المجلد السابع عشر، 1997م.
6. وهيب سمعان: الثقافة والتربية في العصر القديم، القاهرة، دار المعارف، 1961م.